اللغة من نعم الله جل وعلا

نجم الحق الندوي

من فطرة الله التي جرت هكذا أن كل قوم له لغة خاصة ، وهي لغة الأم ولغة الوطن ، أول ما يتكلم بها الطفل الصغير ويتكلم بها الربيب في حجر أمه ويتعلم بها أن يتكلم بهذه اللغة الوطنية ويعبر عما في ضميره وينادي بها أبويه بصوت رقيق ويضطرب لإستماعها كل إنسان من الأبوين والأقارب ، هذه اللغة الوطنية التي يتعلم بها الإنسان في العالم وكل شيء يتشوق إليه وهي وسيلة وحيدة للتعبير عن الخيال والوجدان والعواطف ولا يحتاج الإنسان لتعلمه إلى ممارسة الأمور الخارجية والقيام بها ، وكانت صلتها بقلب كل انسان وثيقة ، فلذلك أن اللغة ربما تكون قضية للقومية والوحدة ، ووسيلة للتعارف حيثما كانت لا تحتاج إلى البيان ، لأن الإنسان لا يتعارف بسرعة إلا بهذه الوسيلة - أي اللغة الوطنية وإن كانت للتعارف طرق ووسائل شتى - ولكن طريقة اللغة مباشرة والطرق الأخرى غير مباشرة ، وهي نعمة من نعم الله جل وعلا التي يقوم بها المجتمع المتحضر البشري ، وعلاوة لذلك أن المسؤولية التي خلق الإنسان لأدائها لا تتطور إلاّ بسلطة اللغة بل لا يتصور ، فلذلك لما خلق الله الإنسان أعطاه قوة النطق كما شار إليه القرآن الكريم ﴿ خلق الإنسان * علمه البيان ﴾ . سورة الرحمن -٣-٤.

إختلاف اللغة وأنواعها من آيات الله

من المعلوم أن أول الناس يتكلم بعائلته في لغة واحدة ، فاتسع نطاق اللغة الإنسانية وانتشروا في أقطار العالم تتولد من لقاءها ومباشرتها لغات كثيرة وذلك من الفطرة لا قوة فيه لأحد من الإنسان ولا سلطة فيه ، لكن كيف تتولد لغات شتى في العالم ؟ لا نذهب إليها ، لأنه خارج من موضوعنا ، وباختلاف اللغة وتنوعها تيسر بها صلة الإنسان بالآخر ، ويستهل قيام المجتمع والأسرة ويتمكن بها القدرة على المعرفة بين الشعوب والقبائل وتنشأ منها الوحدة والقوة ، وليس من الواجب أن يكون الإتحاد بتوافق اللغة فحسب بل ربما تكون الوحدة تعلق وتتولد بأسباب أخرى من الدين والثقافة والحضارة والوطن ، لكن اللغة أدت لتوليد الوحدة بين الشعوب نموذجا مثاليا ، ولا يسئل هنا ما الفائدة في اختلاف اللغة وتنوعها حال كونها كانت واحدة ؟ وإذا كانت في العالم لغة واحدة لا ثانية لا يواجه الإنسان أية أزمة للمعرفة بين الناس ولا يحتاج إلى شيء آخر للتمييز بينهم ، فلا يجاب أن إتحاد اللغة خيرا كان أم شرا بل يقال إن إختلاف اللغة من الفطرة وآيات الله جل وعلا ، ألا ترى أن الدنيا كلها إمتلئت بالتنوعات بل الإنسان يحمل تنوعات كثيرة في الهيئة والشكل والصورة واللون وما إلى ذلك ، فما العجب في تنوع اللغة وإختلافها بل هي من آيات الله جل وعلا حيث قال تبارك وتعالى : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ الروم -٢٢

اللغة لا تستحق الملامة أو الفضيلة من حيث اللغة

من المعلوم إنما كان إختلاف اللغة من آيات الله تبارك وتعالى فلذا لا يجوز لأحد أن يلوم اللغة أية لغة كانت ، ولا تسمح الشريعة السمحاء البيضاء التي جاء بها النبي العربي صلى الله عليه وسلم ذلك بحسب الأقطار والبلاد كما لا يلام الإنسان أو لا يمدح بالفطرة إلى اللون أو الهيئة أو القطر والوطن ، ولا يقال هذه لغة الدين ولغة الإسلام وهذه لغة الكفر والأعداء ، على سبيل المثال : أن اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم كانت لغة القوات المعادية للإسلام أيضا في فجر الإسلام ، كما كانت لغة محمد صلى الله عليه وسلم ولغة أبي بكر وعمر كما كانت لغة أبي جهل وأبي لهب ، فلذلك علم أن اللغة العربية كما كانت لغة الإسلام وكذلك كانت لغة الكفر أيضا ، وبهذه الحكمة الإلهية لا يبعث رسول إلى قومه إلا ينطق بلسان قومه ، وصرح بذلك عز وجل في كتابه العظيم { وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه } سورة إبراهيم / ٤ . وإضافة إلى ذلك أن القرآن الكريم يقول { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا } ، وبهاتين الآيتين تتجلى لنا هذه الحقيقة أن الأمة الهندوسية أيضا من الأمم وبعث فيهم رسولا بلسان قومه السنسكراتية ، وكذلك اليهود بعث إليهم رسلا وأنبياء بلغتهم العبرانية ، ولكن ذلك اليوم أصبحت لغة القوات المعادية للإسلام والمسلمين ، وكذلك اللغة الفارسية كانت لغة الفرس أعداء الإسلام والمسلمين ، ولكن لما احتلها المسلمون وتشرفوا بالإسلام أصبحت مع بلادهم لغة إسلامية وقد نالت اللغة العربية قدراً أعظم من غيرها من اللغات لإختيار كلام الله بالعربية فأصبحت لغة العبادة والتحدي للمعجزة الخالدة وإلى ذلك من اللغات الأخرى ، فلذلك كل لغة تقبل وتتعلم من غير كراهية بدون النظر إلى الدين والقوم والقطر ، إن اللغة هي شيء فطري وإجتماعي وسيلة للناس على التعبير عما في ضمائرهم ، ويظهر بها كل ما يشتمل عليه الضمير الإنساني هي تكون حسنة وقد تكون سيئة بحسب استعمالها لا من حيث ذاتها . فلذلك لا تكون أسوة ونوذجا للغة بل هي مبدءاً لكل أسوة ونوذج لنا ، فينبغي لنا أن ننظر إلى أي شيء يتكلم ، لا إلى أية لغة يتكلم بها ، وهي إن كانت نزيهة ومجردة عن جوانب الخير أو الشر من حيث كانت وسيلة ، ولكن كان لها جانب ثقافي وإن اللغة ليست موضوعة رزينة بل تكون

فيها تيارة ، وقد تتشكل بثقافة خاصة في دور التاريخ ، وكذلك قد تكون قضية للوحدة والتنازع ،على سبيل المثال : إن قوما يعارف بلغة خاصة بل يحاول أن يكون متعارفا بلغة خاصة بل يحاول أن يكون متعارفا بلغة ، مثلا الإنجليز يتعارف بلغتهم الإنجليزية والعرب يتعارف بلغتهم العربية ، وكذلك البنغاليون يتعارفون بلغتهم البنغالية وهذا الفرق أمر واقعي ، ومن يجحد هذا الفرق أو ينساه فقد أنكر شيئا واقعيا أو يحاول إنكاره أو نسيانه ، وإنكار هذه المعرفة أو محاولتها في بطلانها أمر لا يكون فيه ثواب ولا أن تكون فيه صلة بالدين ، والذين يجعلون هذه الأشياء الواقعية قضية للتنازع ويحاولون أن يجعلوها عرضة للثورة والإشتعال يعد من الأعمال الجاهلية .

بين اللغة والعنصر

إن المتكلمين بلغة خاصة توجد فيهم عناصر شتى وأتباع كثيرة لمختلف الأديان ، وذلك بسبب أن يكون الإستعمال شائعا وعاما ورائجا في كل ناحية من نواحي الحياة ، وربما وقع التنازع بين قوم مع أنهم كانوا يتكلمون بلغة واحدة ، إن اللغة البنغالية يتكلم بها المسلمون والهنادك ، ولكن عدة مصطلحات يستعملها المسلمون البنغاليون ويستعمل الهنادك مكانها مصطلحات أخرى ، ولكن هذا الفرق من التعصب الديني .

نشأة اللغة البنغالية والإسلام

إن هذه اللغة قد أصبحت اليوم لغة مستقلة بعد رقي وانهيار من القرن السابع إلى القرن الثالث عشر من الميلادي ، وإنما اللغة التي تعرفها اليوم باللغة البنغالية لم تكن متعارفة بهذا الإسم قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، بل تعرف هذه اللغة حينذاك باسمين أو قُل إن هذه اللغة وقتذاك تعرف في البيئة المتحضرة باسمين إحداهما اللغة السنسكراتية وهي لغة علماء الهندوس وثانيهما اللغة الوطنية أي لغة عامة الناس مع كونها لغة بنغالية لا تحمل إسم لغتها البنغالية ، بل تحمل إسم لغة عامة الناس ، وجعل علماء الهندوس لهذه اللغة إسما آخر من فجر القرن التاسع عشر الميلادي ، ويقولون : إن هذه اللغة (GOURA) باسم قبيلة منهارة من القوم الهندوسية أو إسم قديم لمنطقة البنغال ، ولكن تروجت هذه اللغة باسم البنغالية منذ وسط نفس هذا القرن ، وتطورت هذه اللغة في البيئة الهندوسية بثقافتها وحضارتها ، فلذلك يقسم المؤرخون هذه اللغة بأربعة أدوار .

* الدور الأول من سنة ٦٥٠م إلى سنة ١٢٠٠م وذلك العصر القديم .
* الدور الثاني من سنة ١٢٠٠م إلى سنة ١٣٥٠م وهذا هو العصر الخلفي .
* الدور الثالث من سنة ١٣٥٠م إلى سنة ١٨٠٠م ، وهذا هو العصر المتوسط .
* الدور الأخير هو العصر الحديث من نهاية الدور المتوسط إلى هذا اليوم الدي نحن فيه اليوم

أول رجل كتب بهذه اللغة (MATSENDRA) الربان الذي يدعو الناس إلى الدين البوذي (BUDDISH) في البنغال الشرقي ولكن نشأة هذه اللغة القديمة في عهد الملوك الهندوسيين (SHEEN) لأنهم حاملون اللغة السنسكراتية واتخذوها لغة رسمية مكان اللغة البنغالية ، فروجت اللغة السنسكراتية أو بعبارة أخرى اللغة الدينية الهندوسية مكان لغة الوطن وعامة الناس في البيئة المتحضرة ، وجعل يعاند رجال الدولة الهندوسيين وقتذاك عنادا عنيفا باللغة البنغالية ، وهم يقولون إن اللغة البنغالية ليست لغة الإنسان بل هي لغة الحيوان والطيور ، ومن الجدير بالذكر أن الهندوس هم الذين حالوا بين نشأتها وتطورها ، وهم يتعارفون في ذلك الوقت بإسم آخر (SUDRA) وظهر هذا الإسم بعناية السلاطين المسلمين ، وبواسطة هذه اللغة تأسست دولة المسلمين في البنغال بانتصار إختيار الدين محمد بن بختيار الخلجي على املك الهندوس باحتلال منطقة نديا سنة ١٢٠٤م ، ولذلك يقال إن هذه اللغة تروجت في أيدي الأسر الخلجية ، وذلك من سنة ١٢٠٤ إلى تأسيس دولة إلياس شاهي سنة ١٣٥٢م ، ويعرف ذلك العصر بالدور الخلجي لهذه اللغة ، وقد بدأت نشأة هذه اللغة أيضا في ذلك العصر ، وأشرف على نشأتها وتطوراتها السلاطين المسلمون الإلياسيون من سنة ١٣٥٢م ومن سنة ١٤٤٢ إلى سنة ١٤٧٨م ولا سيما أن هذه اللغة تطورت في عصر السلطان حسين شاهي ، بل تروجت في إزدهار وإنتشار ، ولكن من سوء حظنا بأن اللغة البنغالية غلبت عليها السنسكراتية ، ولا توجد فيها الثقافة الإسلامية وحضارتها بسبب عدم وجود الفرق حينذاك بين عادات المسلمين والهندوس ، وبهذه الإتجاهات تولدت الصلة بين المسلمين والهندوس أو يقال بعبارة أخرى تولدت هذه الصلة بواسطة اللغة وآدابها ، مع ذلك أن المسلمين يعلمون أولادهم اللغة العربية واللغة الفارسية ولا سيما في الأسرة المتحضرة تتعلم اللغة العربية والفارسية بالشدة ، كما تدرس اللغة الهندية والسنسكراتية في المجتمع الهندوسي ، وجعل توثر اللغة الأردية والهندية وخاصة اللغة الفارسية في اللغة البنغالية تأثيرا بليغا منذ أسست الدولة المغولية بيد ظهير الدين محمد بابر سنة ١٥٧٦م في الهند ، وإضافة إلى ذلك أن ذلك التأثير قد وثق بإتخاذهم مرشدآباد عاصمة للدولة سنة ١٧٠٥م ، وهذا التأثير كان مزدهرا إلى مدة بعد إحتلال الإنجليز مرشدآباد بانتصارهم على النواب المسلم سراج الدولة ، فلما غلبت على اللغة البنغالية الثقافة السنسكراتية حاول الأدباء والشعراء الإسلاميون أن يحولوها إلى اللغة الإسلامية وآدابها وثقافتها رغما على أن جماعة من المسلمين إختلفوا إختلافا كبيرا على أن الدعوة والتبليغ إلى الإسلام في هذه اللغة جائز أم لا ؟ ومن هذا الإختلاف نشأت اللغة المخلوطة بإسم اللغة البوتي (POTY) وظهرت اللغة أمام التعليم في احتفاظ تاريخ الآداب الإسلامية وإن كان الهندوسيون قد ساهموا في ذلك الغرض الهام بأغراضهم الذاتية ، وحاولوا في بدءهذه اللغةونشأتها بأغراض أخرى وأصبحت اللغة المخلوطة البوتيّ في البنغال لغة للمسلمين والهندوس جميعا إن [illegible] النكبة للمسلمين في ساحة فلاشي " موضح [illegible]ـر الإنجليز على النواب الأخير سراج الدولة بمؤامرة مير جعفر " سجل التاريخ بطريقة أخرى ، وهذا تاريخ الإزدهار والإنهيار للغة البنغالية .